18me année No 874

Le Caire - 8 — 4 — 1950

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ ق في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨٧٤ « القاهرة في يوم الاثنين ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩ — ٣ أبريل سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

صور من الحياة :

قلوب من حجر !

للأستاذ كامل محمود حبيب

قال لي صاحبي : خرجت من الدار — منذ أيام — وقد شغلتني حاجات الدار والولد ، واكتنفتني شواغل الوظيفة ، فأنا بينها مضطرب العقل موزع الذهن ، لا أستقر على حال ولا أقيم على رأي ؛ فانطلقت مقزعاً على أجد متنفساً في الشارع أو مصرفاً في لجة الحياة . وأنا — دائماً — أرى في الشارع ملهاة لخاطري ومسرحاً لفكري . ورحت أضرب في أنحاء المدينة لا أبتغي هدفاً ولا أصبو إلى غاية ، أقلب النظر في حياة المدينة وفي قفزات الحضارة وفي مشاغل الناس ... فما راعني إلا أن أرى كلباً ملقى على الطوار يئن أنيناً خافتاً فيه الألم والاستسلام ، ويرمق الناس بنظرات راجفة فيها الضيق والخوف ، فنظرت فإذا ساقه مكسورة وإذا الدم ينزف متدفقاً في شدة وعنف ، وإذا الناس يمرون بإزائه في غير عناية ثم يندفعون كل إلى هدفه ، وما فيهم من يعبأ بالجريح الطريح على الطوار . ونبض قلبي بالرحمة واختلج فؤادي بالحنان فاندفعت إليه ... ولكن ، لشد ما آلمني أن أراه ينبح نباحاً عالياً متواصلاً ، وأن أجده يجر نفسه بعيداً ، وفي نظراته الخوف وعلى سمائه الفزع ! فقلت لنفسي « يا ويح قلبي ! لأمر ما فزع مني هذا الكلب الجريح ! » ورحت أروضه في هدوء ، وأذلله في عطف ، حتى اطمأن إلي وسكن روعه فاستكان واستسلم ، وأنا في حيرة من أمره أجيل فيه البصر والفكر معاً ، وتراءى لي أنه يحدثني حديث صديق حبيب ، وسمعت من وراء أناته كلمات ترن في مسمعي كأنها تقول « آه يا صاحبي ! كم في هذا الناس من يترك عظيمه ويخدعك بروائه ، تراه يزهو في ثيابه ويتألق في بهائه ، تخشع النفس من هيبته ، ويعنو القلب لأبهته ، ويستأسر الفؤاد لصوره ، على حين أن في إهابه روح خنزير وفي رأسه عقل حمار ! أما قصتي — يا سيدي — فهي أني غبرت ساعة من الزمان وأنا طريد صبي من أولاد الشارع يقذفني بالحجارة في غير ذنب جنيته ، ويضربني بالعصا في غير جرم اقترفته ؛ لا يزيده فراري إلا تشبثاً بي ، ولا يدفعه نباحي عن أن يستأسد علي ، ولا يصرفه تحرشي به عن أن يوسعني أذى وتعذيباً . ونظرت إلى وراء لأرى عدوي فرأيت إنساناً تخلى عن إنسانيته فبدت فيه حيوانية جياشة تبطش بالعقل والحيلة . ولا عجب — يا سيدي — فإن الإنسانية حين تتهاوى تسفل فتتضع فتنحط إلى أوضع مراتب الحيوانية ! وراعني شراسة الصبي فانطلقت أشتد في غير وعي التمس الخلاص والهرب فقذفت بنفسي في عرض هذا الشارع أريد أن أخترقه ، وهو — كما ترى — مكتظ تزحمه العربات والسيارات والترام جميعاً ، فدهمتني سيارة كسرت ساقي ثم مرقت مثلما يمرق سهم من قوسه ... مرقت وخلفتني هنا أنادي غير

مستمع . واستطعت - في لمحة واحدة - أن أرى السيارة التي أبطرها الغنى فرأيتها تتفوق بالكبرياء وتشرق بالفطرسة وتزهو بالنعمة، ورأيت فيها رجلا واحداً يقودها ... رجلا تعرى عن الإنسانية لينحط إلى أوضع مراتب الحيوانية ...

ورنت الكلمات الحزينة في مسمعي تصاعد من وراء أنات الكلب الجريح ، تخترق شغاف قلبي وتسيطر على نوازع نفسي ، فتشغلني عن حاجات الدار والولد والوظيفة ، وتجذب خيالي إلى الوراء ... يوم أن كنت طريحاً أعاني ثورة أبي ، أقاسي غلظة زوجته التي ليست أمي ، يوم أن لبثت نيفاً وعشرين يوماً موثقاً إلى فراشي لا أبرحه إلا لماماً ، أجد برحاء المرض ولوعة الوحدة ، أفتقد القلب الرحيم الذي يعطف، واليد الرفيقة التي تواسي ، لا أستطيع أن أبوح بالشكوى التي ترنه عن النفس، ولا أطمع في أن أرى الطبيب الذي يطب للمرض... ثم هدأت سورة المرض ساعة فتسللت إلى المستشفى وفي رأيي أني طرت إلى الدار التي أجد فيها شفاء دائي وشفاء نفسي .

ووضع الطبيب يده ثم رفعها وهو يقول «عملية!» فانطويت على نفسي أحدثها حديثاً فيه الطمأنينة والرضا فقلت : « الآن أفوز بإحدى الحسنيين: إما الموت، فأشتفي من داء الحياة ... الحياة التي تصفعني منذ زمان — بالمنت وتعصرني بالشدة ، وإما البرء من سقام أمضى طويلا فأعيش فتى فيه القوة والفتوة ، لا يعجزني أن أكسب قوت يومي » واستسلمت

وفي المستشفى رأيت عجباً من العجب ، ورأيت أجساماً مريضة ينهكها السقام، ونفوساً سقيمة يقتلها اليأس، وقلوباً قاسية يصرعها الشره. وتنشقت روائح متناقضة تصاعد في أرجاء الحجرة فتملأ أنفي فتتقزز لها نفسي. وسمعت أصواتاً مدوية يجأر بعضها بالشكوى ويرتفع بعضها بالصياح... أصواتاً تصك السمع وينخلع لها القلب . ووهت عزيمتي فراودتني نفسي أن أفر من هذا المكان الموحش تحت ستر من الليل ومن الهدوء، غير أن الألم حال بيني وبين أن أفعل فاستسلمت.

هذا هو المستشفى، الدار التي كانت تتراءى في خيالي مهبط الرحمة ومسكن الشفقة، لأنها أنشئت على عمد من الإنسانية السامية تمسح على أوجاع الفقير والعاني بيد رقيقة طيبة ... هذه الدار نفضت عن نفسها الآن عبء الخيال الموهوم وبدت أمام ناظري سجناً يضيع المريض في ظلماته، ويقيه السقيم في مضلاته ، وتتلاشى الصيحات المدوية في لجاجه ، ثم لا يحس واحد فيه الحنان ولا العطف !

أسدل الليل سجوفه وأنا أتقلب على فراش خشن قذر ، وعيناي لا تجدان من الكرى، وإن روحي لتتفزع مما يتراءى لها من أخيلة شيطانية مخيفة، وإن قلبي ليضطرب من أنات تحوم حواليه في هدأة الليل خافتة حيناً وصارخة حيناً ، وإن نفسي لترتاع من أثر الرهبة والفرق ، فشملني خوف أورثني الأرق المعض ، ومضى يومان ...

وفي حجرة العمليات أحسست بالمخدر يسري في عروقي فيستلبني الحركة والحس ، وشعرت ببرد الراحة والخمود يتدفق في مفاصلي ، ثم اغتمرت في سبات عميق

وحين انجابت عني وطأة المخدر استشعرت ألماً عاتياً يعركني عركا شديداً ... ألماً طاش له صوابي وبدا فيه ضعفي ، فندت عني صيحة ارتجت لها أركان المكان ، فخف نحوي الممرض يأمرني في كبرياء وقسوة أن أخفف من غلوائي وأن أهدئ من ثورتي ، وأرغمني على ما لا تهواه نفسي ولا ترضاه ضعفي، ثم قدم إلى قطعة من قماش قذر وأرادني على أن أحشو فمي لتمنع الصوت عن أن يرتفع ، وتكتم الصيحة فلا تندوي ، فألقيت السلم خشية أن ينالني عنته وهو قطيع ، أو يصيبني بطشه وهو قاس

ولأول مرة في حياتي علمت أن الممرض في المستشفى الحكومي رجل جبار النزعة غليظ الكبد جافي القلب ، مرن على الجفوة ودرب على القسوة . وهو — إلى ذلك — صاحب السلطان المطلق في المستشفى ، وصاحب الرأي الأعلى في العنبر ، وصاحب السيطرة العارمة على المريض ، والمرضى يأخذون ما يعطي الممرض في غير نقاش، ويذرون ما يكره في غير تمنع، ويأتمرون بما يأمر في غير تردد ، ثم هو لا يفعل شيئاً إلا أن يستلب المريض من طعامه ، ويسرق السقيم من دوائه، وينزع عن المستشفى ثوبه السماوي الذي تسربله منذ أن أقيم . وهو في الحكومة خادم مطيع ، وفي رأي نفسه السيد الذي لا يخضع إلا للدرهم ولا يتعبد إلا للدينار ، يرتدع — دائماً — في حماقته لأنه أمن الرقيب

وأنسب الألم أظفاره الجافية في جسمي فما تمالكت نفسي عن أن أهضم قطعة القماش القذرة بأسنان فتية حادة ، فأحسست برائحة النتن تصاعد من ثنايها، فألقيت بذات بطني على صدري وإلى جانبي